

جامع يلبغا

الباحث عماد الأرمشي

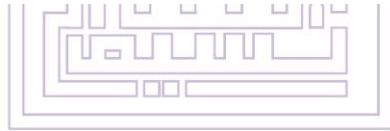
جامع يلبغا هو من الجوامع المندثرة في مدينة دمشق منذ حُقبه السبعينات من القرن العشرين، وكان عامراً بالعلماء والمصلين في حينها. وأُحِبَّتْ أن أحصه بالذكر هنا لكونه ثاني أكبر المساجد المملوكية التي بُنيت في مدينة الياسمين دمشق.

وجامع يلبغا هو امتداداً للإبداع المعماري الذي بلغ أوجه في العصر المملوكي الممتد قرابة ثلاثة قرون. وكان الجامع أبدة معمارية بديعة البناء، من أجمل أوابد مدينة دمشق الذي أضحى أثراً بعد عين .. خارج حدود سور مدينة دمشق القديمة في منطقة تعرف قديماً باسم "تحت القلعة" وتحديدأ في ساحة المرجة حالياً.



أنشئ الجامع كما ورد على لسان فضيلة الشيخ علي الطنطاوي طيب الله ثراه: على تلّ كانت يومها في طرف البلد يشنق عليه المجرمون

وسمّي المسجد بجامع يلبغا نسبة إلى والي الشام الأمير المملوكي (سيف الدين يلبغا) الذي أنشأه عام 747 للهجرة - 1347 للميلاد على أطراف المدينة، ويُعدّ الجامع من أشهر جوامع دمشق، وهو أحد الجوامع الكبرى التي بُنيت على نسق الجامع الأموي خارج سور المدينة كجامع الحنابلة وجامع التوبة وجامع تنكز.



فمن هو يلبغا:

قال الذهبي في العبر: أن الأمير (سيف الدين يلبغا اليحياوي الناصري) عُين نائباً عن الشام في شهر صفر سنة 745 للهجرة.

ولما عاد الأمير يلبغا إلى دمشق بغير قتال، عمّر "قبة" عند موضع خيمته عند مسجد القدم سماها (قبة مصر أو النصر) التي كانت تعرف (بقبة يلبغا).

قال الأسدی في ذيله في سنة 839 في الحرم في يوم السبت الرابع والعشرين منه رأينا القبة التي كانت مشهورة بقبة يلبغا، قد أزيلت، وبني موضعها سقف على المسجد .. فعل ذلك الأمير محمد بن منجك،

وكان سبب ذلك أن الناس كانوا يظنونها قبة يلبغا وأن الزاوية له، وإنما ذلك للأمير محمد بن منجك، وأما قبة يلبغا فإنها غريبها، ولعل صوابه شرقيها.

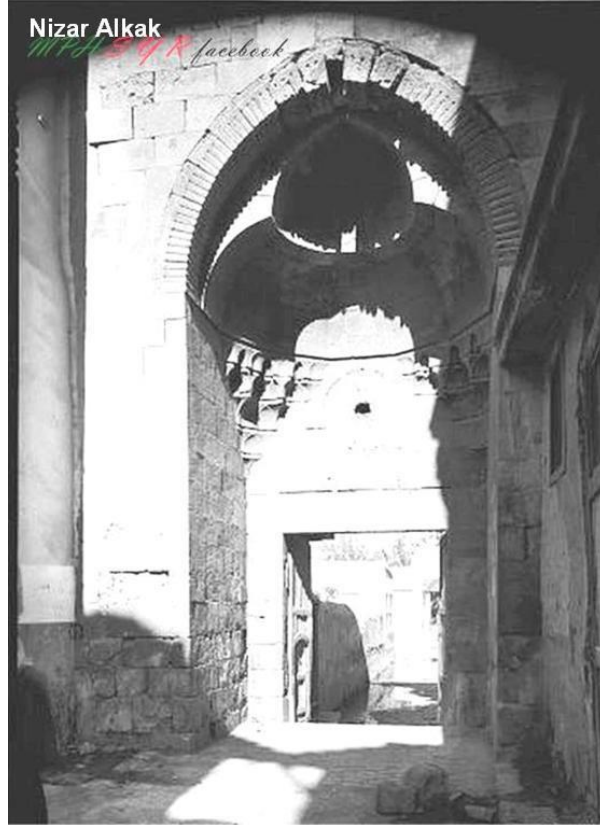


من أقدم الصور الفوتوغرافية الملتقطة لمدينة دمشق (صحن جامع يلبغا ومئذنته الشهيرة)
عام ١٨٤٣ للمصور الفرنسي جوزيف فيليب غيرو / عماد الأرمشي .

وهذه الصورة النادرة لصحن جامع يلبغا ملتقطة من الشرق أي من جهة باب سوق علي باشا وساحة سوق الخيل الى الغرب أي باتجاه المئذنة وحي البحصّة، وتعتبر الصورة من أقدم الصور الفوتوغرافية الملتقطة لمدينة دمشق (لصحن جامع يلبغا ومئذنته الشهيرة) في عام ١٨٤٣ للمصور الفرنسي جوزيف فيليب غيرو.

وبما أن فترة ولاية الأمير سيف الدين يلبغا كانت شبه مستقلة عن القاهرة، لذلك فإن مسجده كان ضخماً جداً ليعبر عن الطريقة التي يفكر بها هذا الأمير في منافسة حكم السلطان الملك المظفر في القاهرة، وقد تعطل العمل في بناء الجامع بعد مقتله، ثم سار الأمر ببطء شديد واكتمل البناء بعد عشر سنوات ... كما هو حاله الآن في القرن الحادي والعشرين !!
وبرز أخيراً كمسجد جامع، وحضر افتتاحه عدداً كبير من الأمراء الذين شاركوا أصلاً في قتل الأمير سيف الدين يلبغا اليحاوي.

فكان في غاية الحسن، لما حفل به من المحاريب والنوافذ المقرنصة والزخارف المحفورة، والشرفات والنوافذ الزجاجية الملونة، بأسلوب المعشّق، فضلاً عن المئذنة والأبواب حتى بدا وكأنه نسخة مصغّرة عن الجامع الأموي بدمشق.



باب جامع يلبغا الغربي عام ١٩٠٨ / عماد الأرمشي

وكان للمسجد الجامع ثلاث مداخل جميلة جداً، مدخل شمالي، وآخر شرقي، وثالث غربي ضمن سور حرم الجامع حيث المدخل المملوكي للمسجد الذي ظل محافظاً على شكله الأساسي متماسكا وقوياً طوال قرون خلت.

وأخبرنا الدكتور محمد أسعد طلس هنا بلغة عصره سنة 1941 للميلاد واصفاً بدقة أكثر تلك الأبواب فقال: للجامع ثلاثة أبواب:

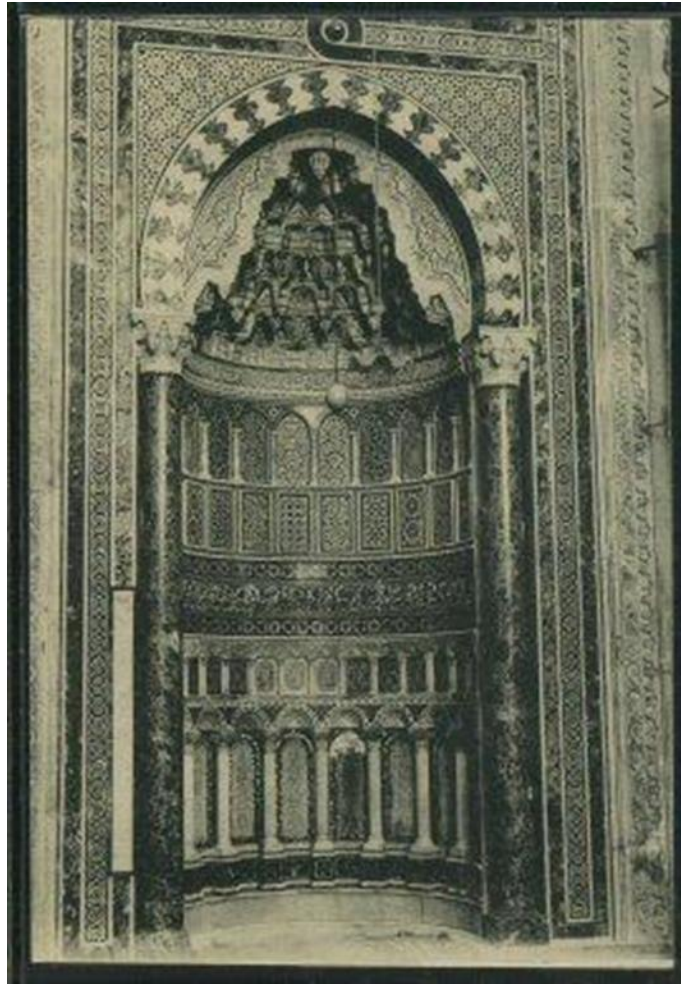
باب شرقي يطل على جوزة الحدياء أمام السوق العتيق، ويسمى سابقاً (باب الحلق) كما ورد عند أبي البقاء بن محمد البدري.

وباب غربي يطل على جادة البحصّة، وكان يُتحدّر منه في درج الى أول الوادي ويمسى باب المنزه.

وباب شمالي مغلق تحت المئذنة. وكان يخرج منه الى الميضأ ويسمى سابقاً (باب الفرج). وللابواب الثلاثة زخارف ومقرنصات حسنة، ولكن الباب الرئيسي هو الشرقي، والى جانب الباب الأيمن شباك كان يطلان على الصحن والى الجانب الأيسر اثنان يطلان على القبلة، وقد جعل أحدهما بويباً يدخل من الى القبلة.

وعموماً الصحن يشكل مساحة تشغل الجانب الشمالي من المساحة العامة، وبهذا الصحن أروقة تحيط بالصحن من جهاته الشرقية والغربية والشمالية، وهي شبيهة بأروقة الجامع الأموي بدمشق، من حيث أنها مبنية على قناطر محمولة على أعمدة وعضائد.

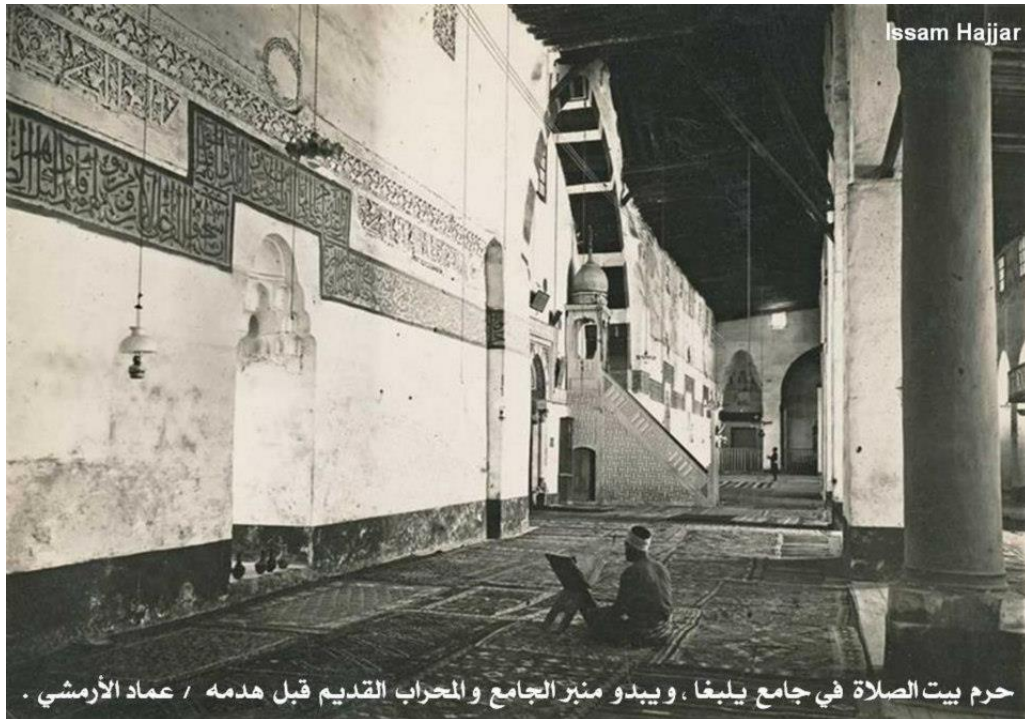
في أطراف الصحن الثلاثة غرف أخذت من الجامع وجعلت مدرسة ابتدائية، وفصل بين الجامع والمدرسة بحائط شوه صحن الجامع، وعزل المنارة عنه، وهي منارة مربعة من حجر لطيفة الصنعة.



محراب الجامع وهو نسخة مطابقة لمحراب الأموي / عماد الأرمشي

محراب الجامع

ونستطيع القول أن قبلية الجامع (حرم بيت الصلاة) هي نسخة مصغرة عن قبلية جامع بني أمية، ويوجد سنم جملوني صغير فوق المحراب، شبيه وبشكل مصغر (غارب الأموي)، والمحراب من الرخام المزخرف الحسن الصنع، ويشبه إلى حد التطابق محراب الجامع الأموي الكبير بدمشق، وكان بجانبه منبر خشبي بديع النقش، وإطار من الزخارف البديعة يحيط بجدار القبليّة، وشبابيك زجاجية ملونة، وكتابات كوفية حسنة.



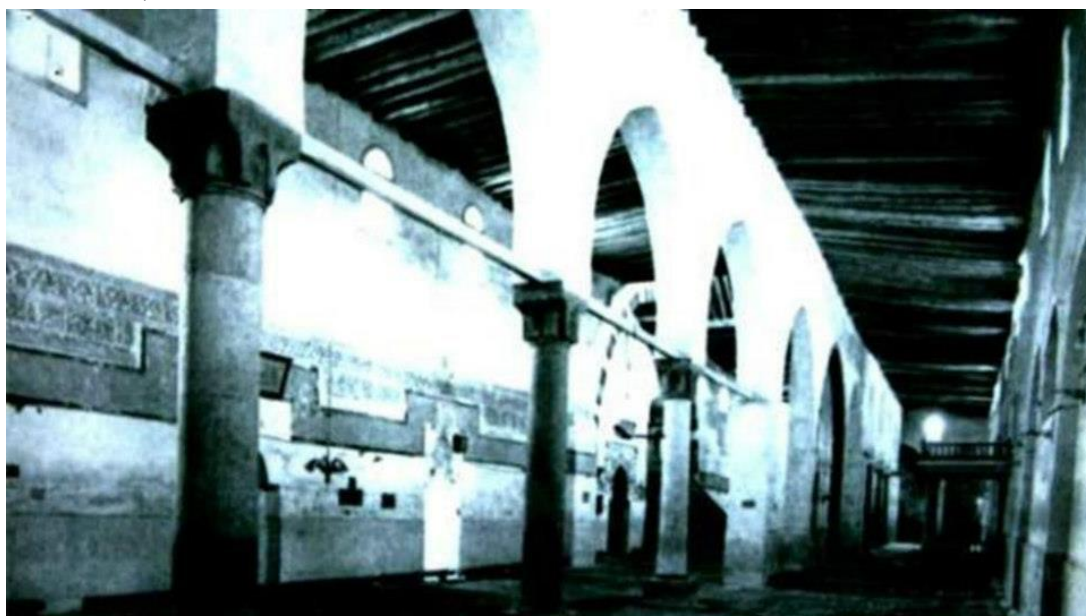
حرم بيت الصلاة في جامع يلبغا، ويبدو منبر الجامع والمحراب القديم قبل هدمه / عماد الأرمشي .

حرم بيت الصلاة (القبليّة) لها جبهة حجرية شمالية عريضة فيها اثنا عشر باباً تطل على الصحن، ومن فوق تلك الأبواب أربع عشرة كوة.

وكان على جدار القبليّة شريط من آيات الكتاب العزيز (من سورة التوبة)

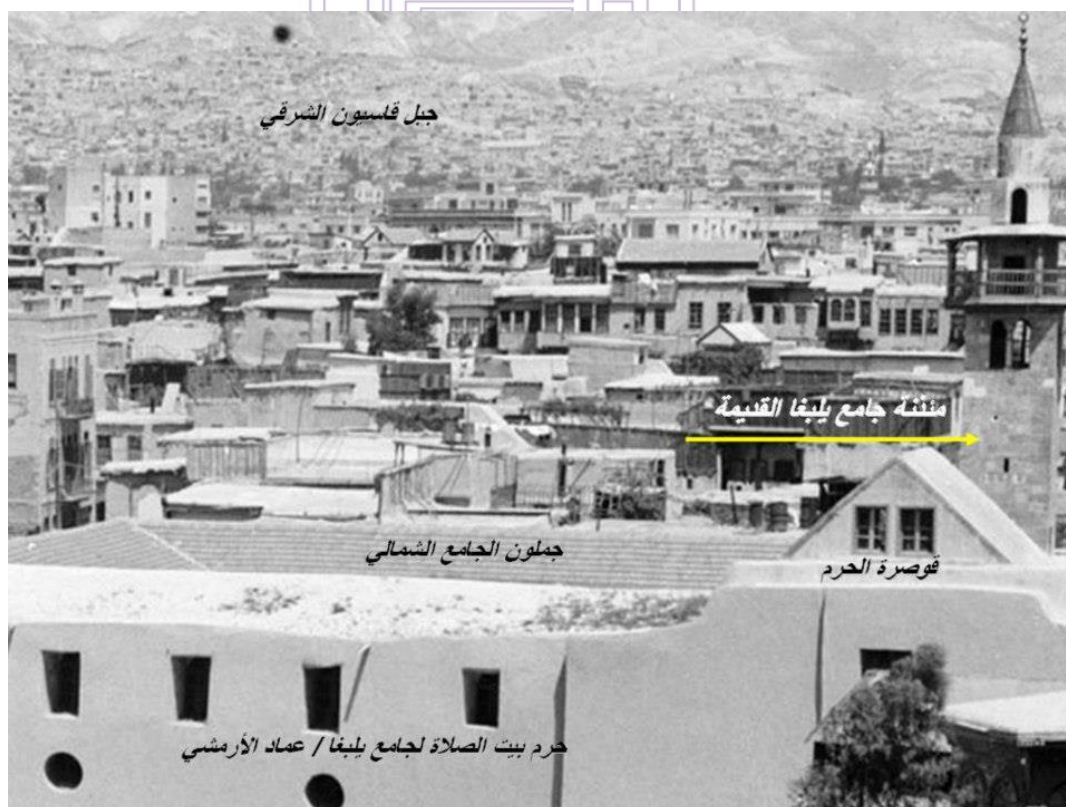
في أركان الجامع الأربعة يوجد محاريب على شكل قبة ويتدلّى منها مقرنصات تحتية محفورة بنقوش جميلة جداً، وهذه المحاريب كانت خاصة فقط بجامع يلبغا، وبقي فيها الجامع متفرداً عن سائر مساجد

دمشق الشام. إذ لا يوجد مساجد وجوامع في دمشق، تحوي مثل هذه المحاريب الأربعة في أركانه كما هو واضح بالصورة التي تظهر حرم بيت الصلاة والمحراب التريني عند التفاء الجدار الشرقي بالجدار الجنوبي.



Yalbuga Masjed – Interior view of the prayer colonnade .

حرم بيت الصلاة وشريط من آيات الكتاب العزيز على جدار القبيلة في جامع يلبغا قبل هدمه / عماد الأرمشي .



جبل قلسيون الشرقي

منطقة جامع يلبغا القديمة

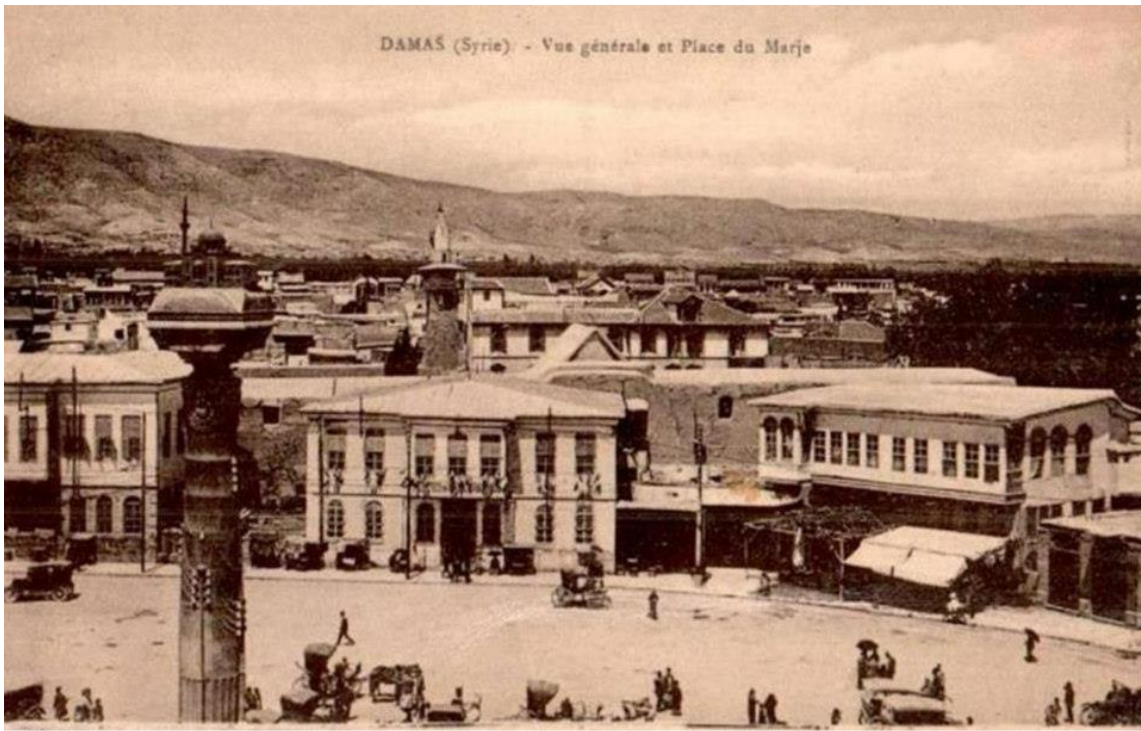
جملون الجامع الشمالي

قوسرة الحرم

حرم بيت الصلاة لجامع يلبغا / عماد الأرمشي

أما المئذنة فقد بنيت على الجدار الشمالي للمسجد مربعة الشكل متقابلة مع مدخل بيت الصلاة مباشرة وقد جددت أكثر من مرة.

وهي مئذنة حجرية ضخمة خالية من المقرنصات وبقية العناصر التزيينية التي عهدناها في المآذن المملوكية، وهي ذات جذع مربع، متكشف في عمارته ضخمة في محيطه، وشاهقة الارتفاع في جذعها السفلي تعلوها شرفة خشبية وحيدة مثمرة الأضلاع خالفت شكل الجذع تغطيها مظلة خشبية أخذت شكل الشرفة، ومتوجة بذروة مخروطية الشكل وبها ورمح وثلاث تفاحات وهلال مغلق إلى الأعلى.

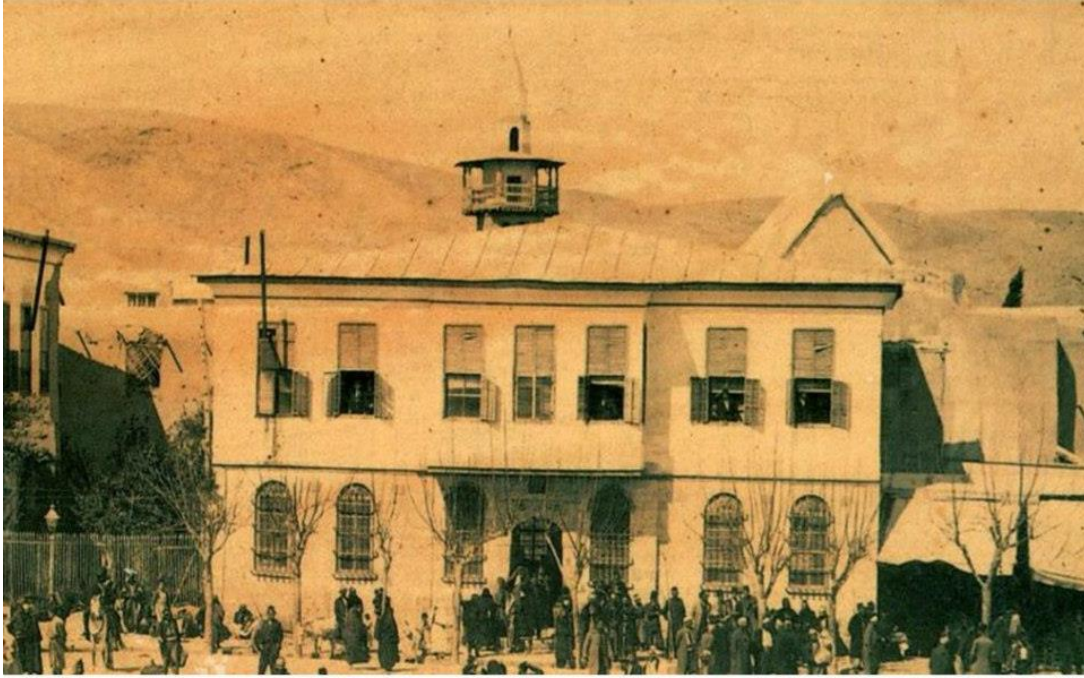


ساحة المرجة في عام ١٩١٢ ومئذنة جامع يلبغا / عماد الأرمشي.

ساحة المرجة في عام 1912 ومئذنة جامع يلبغا.

والصورة ملتقطة من الجنوب (من مبنى العابد) باتجاه الشمال (أي باتجاه جامع يلبغا) حيث نشاهد في مقدمة الصورة العربات التي تجرها الخيول تلتف حول النصب التذكاري للاتصالات السلكية بين مدينة دمشق وبين المدينة المنورة. والقائم في منتصف الساحة (عمود المرجة).

وتبرز خلفهم مئذنة جامع يلبغا الشهير مهيمنة على حرم بيت الصلاة الظاهر بين (سوق ومقهى علي باشا) وبين (مبنى البريد والبرق) ويظهر بوضوح جملون صغير، هو جملون حرم بيت الصلاة بالجامع.



مبنى سراي البوسطة والتلغراف (البريد و البرق) وخلفه (مئذنة و سمن جامع يلبغا) عام ١٨٩٠ / عماد الأرمشي

و ذكر الشيخ عبد القادر بن بدران أن الجامع صار في أيامه سنة 1915 مكتب للعسكرية وكان محله تل يشنق عليه كما حكاه ابن ناصر في كتابه توضيح المشتبه فأخذه سيف الدين يلبغا وأنشأ فيه هذا الجامع سنة سبع وأربعين وثمانمائة.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى كما ورد على لسان فضيلة شيخنا الفاضل علي الطنطاوي عطر الله ثراه، دخل الأمير فيصل بن الشريف حسين مع قواته الى دمشق عام 1918 للميلاد، وأعلن بدأ الحكم العربي في بلاد الشام، ألغيت حينئذ المدرسة التجارية التي كانت تُنسب اسماً " لجمعية الاتحاد والترقي التركية الأتاتورية المشبوهة "، وكانت هذه الجمعية قد استولت في حقبة سابقة على قسم كبير من غرف جامع يلبغا.

وأنشأت المدرسة السلطانية الثانية، وسرقوا نصفه .. فجعلوه مدرسة للصبيان، وتركوا منارته قائمة بالجهة الشمالية في المدرسة لوحدها، تعلن لكل ذي عينين شكواها وتذيع خبر بلوها. فانتقل فضيلته الى السلطانية الثانية تعني الثانوية وكانت في القسم الشمالي من جامع (يلبغا) الذي يقع وراء العدلية والبريد في ساحة المرجة بعام 1917 ميلادي. وكانت السلطانية الأولى هي المعروفة بمكتب عنبر.

ومن ذكريات هذه المدرسة السلطانية بجامع يلبغا "فيضان نهر بردى" فقال: هذا النهر يصل لساحة المرجة بعدما انشق عنه أبناؤه الستة: (يزيد، وتورا، وباناس، والقنوت، والقناة، والديراني) الذي لم يبق من مائه ما يبلل ظهر قط مشى فيه.



ثار بردى تلك السنة 1918 فأغرق المرجة وما فيها ومن كان فيها المدرسة السلطانية الثانية، فصارت المدرسة بركة واحدة، وطففت المقاعد على وجه الماء كالزوارق، وتصايح التلاميذ، فأسرع المدرسون إلى إنقاذ الصغار.

في عام 1953 للميلاد، بعد أن تم إزالة سراي البوسطة والتلغراف (البريد والبرق) في نهاية أربعينات القرن العشرين، بحجة تنظيم المنطقة .. وبقي المكان خالياً ردحا طويلاً من الزمن كما هو ظاهر بالصورة بمحاذاة مرور حافلة الترام ... لينهض مكانها هيكلاً عظيماً لم يعرف منذ 40 سنة .. وإلى اليوم ما هو هذا الهيكل؟؟ وإلى ما يرمز؟؟ سوى أنه نفض بمكان جامع يلبغا القديم ويدعى (مجمع جامع يلبغا).

وقد تم نقل فعاليات سراي دائرة البريد المزالة إلى المبنى الجديد الذي استحدث في شارع النصر وأطلق عليه أسم مبنى (إدارة البريد والبرق والهاتف) والذي أنجز تشييده في عام 1952 للميلاد.

كذلك يظهر مبنى سراي العدلية بساحة المرجة، حتى غابت شمس هذه السراي حين أقامت حكومة السيد الرئيس شكري القوتلي رحمه الله في عام 1948 . 1952 للميلاد بتشييد (مبنى القصر العدلي) بنهاية شارع النصر عند رأس سوق الحميدية ونُقلت اليه جميع دوائر العدل الشرعية والمدنية.



ساحة المرجة وجامع يلبغا ومبنى العدلية وفندق أمية في عام ١٩٥٣ / عماد الأرمشي .

كما نلاحظ عدم وجود مبنى (دار البلدية) .. فقد هُدم المبنى، وكذلك مبنى طبابة المركز (صيدلية المستشفى الوطني) المجاور له في نهاية الخمسينات من القرن العشرين، فهدموا معهما ذكريات وتاريخ حقبة حساسة جدا ومفصلية بتاريخ سوريا وكانت من أكثر الحقب السياسية المفعمة بصنع القرار السياسي لهذه الدولة. وتم نقل فعاليات (دار البلدية) إلى المبنى الجديد (مبنى المحافظة . أمانة العاصمة)

عند ساحة (يوسف العظمة - بوابة الصالحية) في عهد الوحدة بين مصر وسوريا والذي أعلن عن قيامها في دمشق في 1 شباط (فبراير) عام 1958.

أما ساحة المرجة: أظنها واضحة للجميع إذ لا يوجد فيها ما يستدعي الشرح بعد أن هدمت معظم مبانيها الأثرية الجميلة واستبدلت ... بما هو غاية في القباحة ما عدا فندق (أمية - تغير اسمه لاحقاً إلى عمر الخيام) والمشيّد في عام 1927 للميلاد. وتغطية نهر بردى الذي تم عام 1962 وطمر سكة حافلات ترام دمشق.



ساحة المرجة وجامع يلبغا وفندق أمية في ستينات القرن العشرين / عماد الأرمشي .

أما الجامع العظيم (جامع يلبغا) فقد ظل صامداً ظاهراً للعيان والمصلين لمدة 613 سنة ميلادية حتى منتصف سبعينات القرن العشرين، فقد تم إزالته كلياً كما قالوا لتصدع سقفه وجدرانه، ليحل محله مجمع ضخّم يحمل نفس الاسم، ولكن للأسف .. لم يكتمل البناء الجديد لمجمع يلبغا، إما لعدم استواء الأرض وإما لصعوبة امتصاص المياه المتدفقة في أساسات الجامع من الأنهر المحيطة به (نهر بردى، نهر العقرباني) على حد زعم القائمين على إعادة بنائه!! مما أخر بنائه إلى هذا الوقت.

مازالت بعض زخارفه محفوظة في المتحف الوطني بدمشق، وكان يضم مكتبة عظيمة نقلت بعضاً من محتوياتها إلى المكتبة الظاهرية والمتحف التاريخي، ومنها إلى جهة غير معلومة، ويتم منذ ذلك التاريخ وحتى تاريخ إعداد هذا البحث اليوم 5 أكتوبر/ تشرين الأول 2004 العمل على إعادة بناء هذا الجامع، على شكل جديد وبمسمى "مجمع جامع يلبغا".



المجمع الذي ليس له اسم معلن حتى الآن، كان عبر التاريخ: منصة لشنق الخارجين عن القانون في العهد المملوكي ثم مقراً للجامع يلبغا، ومركزاً لشيخ الإسلام ابن تيمية، وبعدها مقراً لتجمع المتطوعين لقتال التتار ليصبح معملاً للبسكويت في عهد إبراهيم باشا، ثم المدرسة السلطانية الثانية في عهد الشريف فيصل، إلا أنه هُدم منتصف السبعينيات، ليطلق مكانه مشروع (مجمع ديني وجامع يلبغا)، ثم مجمع (تجاري) وجامع يلبغا، ثم مجمع وجامع الشهيد باسل الأسد، ثم اختفت اللوحة التي كانت تشير إلى اسمه، لتنتصب لوحات إعلانية كبيرة تابعة لسيرياتيل (شركة هواتف محمولة).

هذا المجمع "الغامض" كما سُمّاه البعض، كان مسجداً جامعاً مملوكياً فريداً في عمارته له واجهات من الحجر الأثري النادر، سوي أرضاً قبل نحو أربعين عاماً، ونُقلت واجهاته الحجرية إلى متحف دمشق.

على أمل إعادتها بعد انتهاء المشروع الذي احتاج لنحو ست سنوات حتى انتهت دراساته، ثم احتاج أربع سنوات أخرى ... حتى رسا عقد تنفيذ المشروع على مؤسسة الإسكان العسكرية الفرع 7 الذي استلم المشروع في عام 1982.

على أن تتم المباشرة في عام 1983، وعلى أن يُسَلَّم المشروع منجزاً وفقاً للعقد بعد 36 شهراً، أي ثلاث سنوات؟؟، لكن التسليم الفعلي كان في عام 2003 أي بزيادة 17 عاماً عما هو وارد في العقد.

محافظة دمشق تقول إن صاحبة المشروع: هي وزارة الأوقاف، وإن المحافظة لا علاقة لها بالمشروع وليست معنية بالإجابة عن أية تساؤلات تخصّه. ويقول أستاذنا أيوب سعدية:

في عصر كانت اليد العاملة هي الأساس تم بناء هرم خوفو بأقل من ثلاثين عاماً وفي عصر الملكة زنوبيا ملكة تدمر تم بناء السور في أقل من عشر سنوات.. وفي العصر الحديث تم بناء سد الفرات العظيم في أقل من خمسة عشر عاماً. أما مجمع بلبغا فقد بدئ العمل فيه منذ قرابة الأربعين عاماً ولا يزال -على العظم- أليس معيياً أن يبقى هذا البناء هكذا عورة في مرجة دمشق أهم نقاط دمشق العاصمة. أليس معيياً أن يتأخر كل هذا الزمن.

وعندما سألنا عن حجارة مسجد بلبغا الأثري التي كان من المؤمل إعادتها كما كانت - قالوا عن أي حجارة تسأل.. لقد ضاعت مع الزمن.. وعفا الله عما سلف.

إعداد عماد الأرمشي

المراجع:

- . تاريخ مدينة دمشق / ابن عساكر - . دفاتر شامية عتيقة / د. أحمد إيش
- . الوافي بالوفيات/صلاح الدين خليل الصفدي - . ذكريات علي الطنطاوي/ الشيخ علي الطنطاوي
- . العبر في خبر من غير / شمس الدين محمد الذهبي - ومصادر أخرى